نسبية الأخلاق
عند بديع الزمان النورسي

أ. ماهر الهندي(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرع لنا من الدين ما وصَّى به نوحاً والنبيين من بعده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الذي لا نبي من بعده، وعلى آله وصحبه وخلفائه وورثته وجنده.

وبعد: فإن القيم المعنوية التي أرساها القرآن وأكدها النبي العدنان صلى الله عليه وسلم وحملها عنه آل بيته ونقلها بعده أصحابه ودونها العلماء والحكماء والأدباء، إنما هي مبادئ أخلاقية روحية تعتمد على الذوق وتقصد إلى الجمال وتُدرَك بالحواس.

فالعلم والكرم والشجاعة العدل والتواضع والحلم والتقوى والزهد معانٍ أخلاقيةٌ وقيم روحية تتعاضد مع العقيدة الصحيحة والعبادة الصادقة والمعاملة المستقيمة لتشكل هذه الأربعة مجتمعةً أركانَ هذا الدين المستمدةَ من تأمل كتاب الله العظيم وسيرة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ولا يزال التفاوت بين أفراد هذه الأمة في تخلقها بأخلاق نبيها وتتبعها لسُنَنِه والتزامها بأحكام دينه وآداب شريعته مظهراً من مظاهر إعجاز الله في خلقه ﴿ولو شاءَ ربُّكَ لَجعلَ النَّاسَ أُمَّةً واحدةً ولا يَزَالُونَ مُختَلِفينَ إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ ولذلكَ خَلَقَهُم﴾ (هود: ١١٨).

(*) باحث دكتوراه في أصول الفقه (مقاصد الشريعة)، محاضر في مجمع الفتح الإسلامي بدمشق، جامع الإحسان – سورية. maheralhendi@yahoo.com

فالصحابة فيما بينهم وآل بيت النبوة وعلماء الشريعة وأولياء الله تعالى متفاوتون تفاوتاً بيّناً في اقتفائهم لآثار المصطفى صلى الله عليه وسلم رغم اتفاقهم على الإيمان به ولزوم اتباعه وجمال شريعته.

وإنما يرجع اختلافهم هذا فيما بينهم إلى قضية النسبية في الأخلاق وهم أمة واحدة في عقيدتهم وشريعتهم وقرآنهم ونبيهم وكعبتِهم بله عدوِّهم.

وإنما تظهر هذه النسبية عند اتحاد الجهة فيما بين أفراد الجنس الواحد ويسمى مشككاً[١]، كاختلاف أفراد اللون الأبيض ما بين الناصع إلى الغائم فالثلج أكثر بياضاً بالنسبة إلى اللبن والدم أكثر احمراراً مقارنة بالشفق.

فإذا اختلفت المجانسة بين شيئين فلا توجد مقارنة حقيقية ولا تصح علاقة النسبية بينهما إلا مجازاً كقولنا: المسلم أتقى من الكافر والعسل أحلى من الخل، ومنه قوله تعالى: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ والذينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾ (البقرة:١٦٥).

وقد بين الإمام المجدد الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في أول سانحاته[٢] في حكمة إطلاق الصالحات في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ (العصر:٣) بقوله: (فالقرآن الكريم يترك (الصالحات) مطلقة دون قيد يقيدها ومبهمة دون أن يشخصها، وذلك أن الفضائل والأخلاق وكذا الحسن والخير أغلبها أمور نسبية تتغير كلما عبرت من نوع إلى آخر وتتباين كلما نزلت من صنف إلى صنف وتختلف كلما بدلت مكاناً بمكان، وتتبدل باختلاف الجهات، وتتفاوت ماهيتها كلما علت من الفرد إلى الجماعة ومن الشخص إلى الأمة). ويضيف إلى ذلك : قوله: (وحيث إن الحسن النسبي والخير النسبي كثير جداً[٣]).

يقول النورسي: (اعلم أن في العالم اختلافا وتغيراً ونظاماً شاملاً، فالاختلاف هو الذي أظهر الحقائق النسبية التي هي أكثر بكثير من الحقائق الحقيقية، والنسبة لها وقع

---

(١) التشكيك: هو نسبية وجود معنى كلي في أفراده مع التفاوت قوة وضعفاً. "ضوابط المعرفة" د.عبدالرحمن حبنكة الميداني ص٥٨، دار القلم دمشق ط: ثالثة ١٩٨٨م.

(٢) "صيقل الإسلام" ص٣٣٣.

(٣) "صيقل الإسلام" ص٣٣٤.

عظيم قد ألتفت رعايتها بوجود شرور مغمورة، فلولا القبح لانتفى حسن المحاسن الكثيرة، ثم إن التغير هو الذي كثَّر تلك الحقائق النسبية، ثم النظام هو الذي سلسلها وفننها وتماثيل تلك النسبيات هي القضايا الكونية التي هي تفاريق القضايا، التي هي تفاصيل القدر الإلهي[١])

وعلل النورسي ذلك فقال: (لذا فالصحابة الكرام رضى الله عنهم الذين وُهبوا فطراً سليمة ومشاعر سامية، وهم التواقون لمعالي الأمور ومحاسن الأخلاق شدوا أنظارهم إلى الذي تسنَّم قمة أعلى عليي الكمال والداعي إلى الخير والصدق والحق، بل هو المثال الأكمل والنموذج الأتم، ذلكم الرسول الكريم حبيب رب العالمين محمد صلى الله عليه وسلم، فبذلوا كل ما وهبهم الله سبحانه من قوة للانضواء تحت لوائه، بمقتضى سجيتهم الطاهرة وجبلتهم النقية، ولم يُر منهم أي ميل كان إلى أباطيل مسيلمة الكذاب الذي هو مثال الكذب والشر والباطل والخرافات)[٢].

وقال أيضاً: (إن الإفراط والتفريط في الأخلاق يفسدان الاستعدادات والمواهب، وهذا الإفساد ينتج العبثية، وهذه العبثية مناقضة للحكمة الإلهية المهيمنة برعاية المصالح والحكم حتى على أصغر شئ في العالم.

وهكذا فملكة تعديل الأخلاق الموهومة لا تكفي للمحافظة على القوى الثلاثة في الحكمة والعفة والشجاعة، لذا فالإنسان بالضرورة محتاج إلى نبي يمسك بميزان العدالة الإلهية النافذة والمؤثرة في الوجدان والطبائع.

كما أن النظر بدافع الهوى وبشهوة إلى جنازة امرأة حسناء تنتظر الرحمة وترجوها يهدم الأخلاق ويحطها)[٣]

ثم إن الدليل على نسبية الأخلاق من القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿ ولَن تَستَطِيعُوا أَن تَعدِلُوا بَينَ النِّساءِ ولَو حَرَصتُم فلا تَمِيلُوا كُلَّ المَيلِ فَتَذَرُوهَا كالمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء:١٢٩).

---

(١) "صيقل الإسلام" ص: ٢١٩.

(٢) "الكلمات" ص٥٧٤- ٥٧٥.

(٣) "الكلمات" ص٤٧٦.

وعلل النورسي لقضية النسبية بأن الأشياء تعرف بأضادها فقال: (وما اشتهر من " أن الأشياء إنما تُعْرَف باضدادها " معناه: أن وجود الضد سبب لظهور ووجود الحقائق النسبية للشيء. مثلا: لو لم يوجد القبح ولم يتخلل بين الحسن لما تظاهر وجود الحسن بمراتبه الغير المتناهية[١]).

(مثلاً: لذة الحرارة وميزتها هي بتأثير البرودة، واللذة النسبية للطعام بتأثير ألم الجوع[٢]).

- **تعريف الأخلاق:**

والأخلاق عند النورسي: هي نظام القرآن الذي يطبع الروح الإنسانية بماهيتها ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة، لاكتساب معناها الكوني[٣].

وإذ كان عسيراً تناول موضوعِ الأخلاق بشموليته وأبعاده في أبحاثه وفصوله أثناء بحث مختصر وجيز وعرض سريعٍ لفلسفة تفاوت الناس في تخلقهم بالأخلاق الفاضلة المتفق عليها بين عموم البشر.

فمن خلال منطق الأولويات سأعرض للرؤية الفلسفية لنسبية الأخلاق عند الأستاذ النورسي ومدى إسهامه في تنزيلها على الواقع والممارسة السلوكية الشخصية.

- **تمهيد في نقد النظرية النسبية:**

ولا بد بين يدي البحث من تمهيد لمناقشة قضية النسبية الأخلاقية عند الفلاسفة ونقدها[٤] عند النورسي من خلال النقاط التالية:

١- **مفهوم النسبية:** هي وضع فلسفي يرى كل وجهات النظر أنها صحيحة شرعية متساوية، فكل الحقائق نسبية إلى الفرد.

وهذا يعني أن كل الأوضاع الأخلاقية، وكل الأنظمة الدينية، وكل الأشكال الأدبية، وكل الحركات السياسية هي حقائق نسبية للفرد.

---

(١) "إشارات الإعجاز" ص: ٣٥

(٢) "الكلمات" الكلمة الثانية والثلاثون ص: ٧٤٠

(٣) "الكونية الأخلاقية عند النورسي" د.فريد الأنصاري من كتاب "المؤتمر العالمي السادس "العولمة والأخلاق" ص٢٠٦.

(٤) ونعني بالنقد الحكم عليها وتقييمها ووزنها بميزان الأدلة الشرعية والمنطقية سلباً وإيجاباً.

بينما يعرفها النورسي بقوله: (وقد أطلق العلماء على أمثال هذه الصفات مصطلح "الأمور الإضافية" أي: النسبية، أي: لا يحصل الواحد دون الآخر[١]).

وأول عبارة واضحة عن النسبية ظهرت في قول أفلاطون: "تظهر الأشياء لي، كما توجد بالنسبة لي، وتظهر الأشياء للآخرين، كما توجد بالنسبة لهم" فالنسبية تقرر أنه لا يوجد هناك حقيقة موضوعية، فما أراه هو الحقيقة بالنسبة لي، وما تراه هو الحقيقة بالنسبة لك، فلا يوجد خطأ.

يقول النورسي: (فالابتلاء والامتحان سبب النشوء والنماء، والنشوء والنماء سبب لانكشاف الاستعدادات الفطرية، وتكشف الاستعدادات سبب لظهور القابليات، وظهور القابليات سبب لظهور الحقائق النسبيّة، وهذه الحقائق النسبية سبب لإظهار تجلّيات نقوش الأسماء الحسنى للخالق الجليل وتحويل الكائنات إلى صورة كتابات صمدانيّة ربّانية)[٢].

ففي النسبية ليس هناك أحد يقول: إن منهجي وطريقي هو المنهج الصحيح الوحيد، لذا يجب أن لا نقهر أحد على قبول منهج ما أو طريقة معينة، فمنهج الإرساليات التبشيرية والعسكرية انتهى.

وفي النسبية مقياس السلوك هو ذواتنا، فما هو الحق والعدل في عين شخص ربما لا يكون حقاً وعدلاً في عين شخص آخر، ولا أحد يستطيع أن يزعم أنه هو على الحق والصواب أو الحقيقة المطلقة، والاختلاف في الحقائق يعود إلى اختلاف الرؤية والوضع الملائم للشخص.

بينما يقول النورسي: (إنه لكي تثبت الحقائق النسبية وتتقرر، وتتولد أشياء كثيرة من شئ واحد وتنال الوجود وتظهر)[٣].

وفي أمريكا يقودون السيارة على اليمين وفي بريطانيا وأستراليا على اليسار، فهذا اختلاف في الأشكال والأساليب ولكنهم يشتركون في وضع ضوابط وقوانين تضبط

---

(١) "الكلمات" الكلمة الثالثة والثلاثون ص: ٨١٦

(٢) "الكلمات" الكلمة التاسعة والعشرون ص: ٦٣٠

(٣) "اللوامع" ص: ٨٦٤.

حركة السير، فكذلك الإنسانية لا يمكن أن تعيش دون ضوابط وإن كان هناك اختلاف في الوسيلة والأسلوب.

ويورد الإمام النورسي أسئلة لشرح نظرية النسبية فيقول: (قيل لك: اعلم أن الكمال والخير والحسن في الكائنات هي المقصودة بالذات وهي الكليات؛ وأن الشر والقبح والنقصان جزئيات بالنسبة إليها قليلة تبعية مغمورة في الخلقة، خلقها خالقها منتشرة بين الحسن والكمال، لا لذاتها، بل لتكون مقدمة، وواحداً قياسياً، لظهور بل لوجود الحقائق النسبية للخير والكمال)[١].

(فإن قلت : فما قيمة الحقائق النسبية حتى أُستُحسن لأجلها الشرّ الجزئي؟

قيل لك :إن الحقائق النسبية هي الروابط بين الكائنات، وهي الخطوط المنسوج منها نظامها، وهي الأشعة المنعكس منها وجود واحد لأنواعها.

وإن الحقائق النسبية أزيدُ بألوفٍ من الحقائق الحقيقية؛ إذ الصفات الحقيقية لذاتٍ لو كانت سبعة كانت الحقائق النسبية سبعمائة . فالشر القليل يُغْتَفَر بل يُسْتَحْسَن لأجل الخير الكثير؛ لأن في ترك الخير الكثير -لأن فيه شراً قليلاً - شراً كثيراً. وفي نظر الحكمة إذا قابل الشر القليل شراً كثيراً صار الشر القليل حسناً بالغير، كما تقرر في الأصول في الزكاة والجهاد)[٢].

والفلسفة النسبية منتشرة في ثقافة الفكر الغربي المعاصر متمثلة في رفض الإله والحقيقة المطلقة.

وقد أدت هذه الفلسفة عندهم إلى انتشار الأمراض الأخلاقية فقد شجعت الفرد إلى أن يقبل الشذوذ الجنسي والإباحية والتفسخ ونشر الرذيلة.

فمبدأ: كل فرد على حق. أو بعبارة أخرى: لا توجد حقيقة مطلقة، أو: هذا حق عندك وليس عندي، وعبارات أخرى غير منطقية شبيهة لهذا المعنى المقصود منها تسويغ أعمال الرذيلة وإعطائها نوعاً من القبول الذاتي والاجتماعي لها.

---

(١) "إشارات الإعجاز" ص: ٣٥

(٢) "إشارات الإعجاز" ص: ٣٥

يقول "سيمون" أحد الفلاسفة الغربيين: إذا نحن تخلينا عن أي سلطة فوق الطبيعة فإننا سنواجه قوانين أنشأناها بأنفسنا، وعليه يظهر التفكير أن القوانين أنشئت بطرق مختلفة بأناس مختلفين في أزمان متفاوتة، وفي أي حالة، وليس هناك حقيقة واحدة وإنما هناك فقط حقائق مختلفة لمجتمعات متباينة.

هذه هي فكرة النسبية وذلك أن الحقائق الأخلاقية تتفاوت تبعاً للفرد والزمان والظروف في الحياة الدنيا، أما في الدار الآخرة فيقول النورسي: (إن هذه الأوامر النسبية تصبح حقائق حقيقية)[1].

٢- أنواع النسبية:

وتحت المظلة النسبية تصنف المجموعات وفق التالي:

أ. النسبية المعرفية: وهي تؤكد أن كل الحقائق نسبية. وهذا يعني أنه لا توجد هناك حقيقة أكثر مصداقية من الأخرى وبالتالي لا يوجد مقياس موضوعي للحقيقة كالقضايا الاجتهادية الظنية والنظريات التجريبية.

ب. النسبية الأخلاقية: كل الأخلاقيات نسبية داخل المجموعة الاجتماعية التي يتكون فيها العلم والكرم.

جـ النسبية الوضعية: كل أخلاقيات الصواب والخطأ يعتمد على الوضع التي تعيشه كالغنى والفقر، والشدة والفرج.

أولاً - النسبية المعرفية: تؤكد النسبية المعرفية أن كل الحقائق نسبية. وهذا يعني أنه لا يوجد نظام حقيقي محدد أكثر صحة ومصداقية من نظام آخر، ولا يوجد مقياس موضوعي للحقيقة المطلقة، لأن أغلب الحقائق نسبية.

وكذلك تنكر النسبية أن التفكير العقلي يمكن أن يكتشف الحقيقة المجردة ويؤكدها.

وإذا كانت النسبية المعرفية لا تنكر وجود اختلافات في الثقافات المتنوعة؛ بل تؤكد ذلك، إلا إنها في المقابل لا يوجد هناك نظام ابستميولوجي (معرفي) أعلى من نظام

---

(١) "اللوامع" ص٨٦٥.

آخر. وبالطبع هذا يؤدي إلى إدحاض ذاتي وذلك بزعمها أن مبدأها للحقيقة النسبية هو حقيقة مطلقة وأنها تستخدم لتحديد النسبية المعرفية بأنها حق.

ويُسقط الإمام النورسي وقعة الجمل على نظرية العدالة الإضافية النسبية فيقول: (إن معركة الجمل التي دارت رحاها بين سيدنا على رضي الله عنه وجماعته من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشةرضي الله عنهم أجمعين من جهة أخرى، هي معركة بين العدالة المحضة والعدالة الإضافية (النسبية).

وتوضيحها كالآتي: لقد جعل سيدنا علي رضي الله عنه، العدالة المحضة أساساً لسياسته في إدارة دفة الحكم، وسار بمقتضاها على وفق اجتهاده وبمثل ما كان الشيخان يسيران عليه من قبله.

أما معارضوه فقد قالوا :إن صفاء القلوب وطهارة النفوس في عهد الشيخين كانا ملائمين وممهّدين لكي تنشر العدالة المحضة سلطانها على المجتمع، إلاّ أن دخول أقوام متباينة الطبائع والاتجاهات وهم على ضعف الإسلام بمرور الزمن، في هذا المجتمع أدّى إلى وضع عوائق مهمة إزاء الرغبة في تطبيق العدالة المحضة، فغدا تطبيقها صعباً، لذا فقد اجتهدوا على أساس بالعدالة النسبية التي هي اختيار لأهون الشرين)[١].

وقال أيضاً: (إن قسماً من الصحابة قد ظهروا في الجهة المخالفة للإمام علي رضي الله عنه في تلك الفتن نتيجة الأخذ بالعدالة النسبية "الإضافية" وإتباعاً للرخصة الشرعية بدلاً من أن يكونوا مع الإمام علي رضي الله عنه الذي ألزم نفسه الأخذ بالعدالة الحقيقية "المحضة" والأخذ بالعزائم الشرعية مع مسلكه المتسم بالزهد الشديد والاستغناء عن الناس والتقشف، فأولئك الصحابة الكرام قد تركوا مسلك الإمام علي رضي الله عنه ودخلوا في الصف المخالف له نتيجة هذا الاجتهاد حتى إن عقيلاً رضي الله عنه وهو أخو الإمام علي رضي الله عنه و ابنَ عباس رضي الله عنه الملقب بحبر الأمة كانا في الصف المخالف للإمام لفترة، ولأجل كل هذا فقد اتخذ أهل السنة والجماعة القاعدة الأساسية الشرعية وهي عدم جواز فتح أبواب تلك الفتن فقالوا: من محاسن الشريعة سدّ أبواب الفتن: وقد طهّر الله أيدينا فنطهر ألسنتنا)[٢].

---

(١) "المكتوبات" المكتوب الخامس عشر – ص: ٦٦

(٢) "الملاحق" ملحق أميرداغ/١، ص: ٢٩٩

ثانياً - النسبية الأخلاقية: النسبية الأخلاقية تعني عدم وجود أخلاق مطلقة، فليس هناك صواب وخطأ أخلاقي، فالنسبية تسمح للأشخاص بأن يتبنوا الأخلاقيات التي يريدونها كما يتبنون الثقافة والمعرفة.

وإنكار الأخلاقيات المطلقة هو إنكار للقيم الإيمانية التي تقرر أصول أخلاقية يجب أن يتحلى بها المرء.

فإذا كانت الأخلاق تتغير مع مضي الوقت فإن هناك إشكالية تناقضية ذاتية داخل المنظور النسبي، فمثلاً الاسترقاق كان مباحاً لدى الأمريكان ويرونه أمراً مقبولاً لا يتعارض مع القيمة الأخلاقية ثم مع مرور الوقت منعوا الاسترقاق واعتبروه عملاً غير أخلاقي.

وقد تتغير وجهة نظرهم في المستقبل فتعاد فكرة قبول الاسترقاق وأنه لا يتصادم مع القيم الأخلاقية، فكيف نقول إن الاسترقاق حق أم باطل؟ فلا شك أن هذا يحدث مجموعة من التناقضات في القضية الواحدة هل هي حق أم باطل؟

فالنسبية الأخلاقية تجعل المجتمع هشاً سريع الانحلال والذوبان، فالأخلاق هي الرابط الاجتماعي كالرابط العنصري في تماسك المجتمع، لذا لابد أن تكون هناك قضايا أخلاقية مجمع على صوابها أو خطأها.

فالرشوة وإن كانت قضية إيمانية فهي كذلك قضية أخلاقية، فلابد أن يكون هناك اتفاق جمعي بأنها عمل مشين يؤدي إلى فساد المجتمع وينبغي أن ترفض من الكل.

٣- انتشار المذهب النسبي:

إلا أن هناك تساؤلاً: لماذا اكتسبت النسبية مكانة رفيعة في المجتمع الحديث؟

في الواقع هناك عدة عوامل ساهمت في قبول النسبية:

أولاً: النجاح العملي زاد في اعتقاد فكرة أن الإجابات الحقيقية توجد في العلم. لذا يعتقد كثير من الناس أن ما يقوله العلماء - مهما يكن ذلك القول - هو صحيح.

وإذا لم يستطع العلم أن يجد جواباً لشيء ما فإنه ببساطة ستكتشف الحقيقة لاحقاً.

فالناس يؤمنون بالعلم المطلق فقط فيما نعرفه الآن، والذي ربما يكون غير حقيقي لاحقاً، وهذا يقوض الحقيقة المطلقة.

ثانياً: القبول الواسع لنظرية التطور، فالإله أُزيح بعيداً خارج المنظومة الفكرية، وبدون اعتقاد وجود الإله المقرر للحقيقة والباطل فإن الإنسان سيكون بديلاً عن الإله ويقرر ويعتقد ما هو الحق وما هو الباطل.

ثالثاً: نحن نواجه ثقافات متنوعة ومتفاوتة، وهذا الاتجاه يجعلنا أكثر انسجاماً وقبولاً مع فكرة وجود أكثر من طريق لعمل شيء ما، والإيمان بتعدد الثقافات لا يشترط بطلان هذه الفكرة لكنه يعمل على تقويض أو إنكار الحقيقة المطلقة.

رابعاً: زيادة الفلاسفة النسبيين وخصوصاً المنتمين إلى حركة العصر الجديد الذين يقولون: إنه لا يوجد حقيقة مطلقة، وأن كل شيء بإمكانه أن يخلق واقعه.

خامساً: التحرر من القيم الأخلاقية، والقيود الاجتماعية فالنسبية تقرر مذهب دع الآخر يعمل ما يشاء.

بينما يلخص النورسي عقيدة أهل السنة والجماعة في نظرية النسبية فيقول: (وأما الاعتباريات: فالتسلسل إنما يلزم من القصد وهو ليس بلازم، والتبعيّ كالحرف لا يتسلسل ومن هنا يقال: لازم المذهب الغير البيّن ليس بمذهب واعتباريّتها بإعتبار وجودها.

أما نفسها فالخارج ظرف لها، وفي الحمل الخارجيّ يجوز أن يكون مبدأ المحمول معدوماً، كزيد موجود في الخارج، فيلزم التسلسل في الأمور الثابتة في نفس الأمر، واللزوم من الأمور النسبيّة موجود عند الحكماء لأهل السنّة)[1].

٤- نقض النظرية النسبية الفلسفية:

لا يمكن لأي مجتمع أن يعيش دون حقائق مطلقة مشتركة بين أفراد مجتمعه، فبدون الحقيقة المطلقة لن يكون هناك تماسك اجتماعي وسينشأ الصراع والنزاع وستصدم الآراء ويحدث الشرخ الاجتماعي والتمزق الثقافي وبالتالي يؤدي إلى ضعف المجتمع وسقوطه.

ومن الطبعي أن يحدث هناك اختلاف في تقييم الأشياء واختلاف في كيفية التعامل معها ولكن يظل هذا الاختلاف والتفاوت في ظل مظلة عامة متفق عليها.

---

(١) "صيقل الإسلام" ص: ٢٦٨

فقد يختلف الآباء في تربية أبنائهم ولكنهم في الغالب يتجهون إلى نفس الهدف. فالحقيقة العامة متفق عليها ولكن الأساليب في التعامل مع هذه الحقيقة قد يختلف.

والاختلاف في قيادة السيارة لا يؤثر على المعنى الأساسي للقيادة أو يمنع من وجود قوانين للقيادة، وقس على ذلك عادات وأعراف الناس فقد تختلف ولكنها تتفق في المعنى العام.

فهذه القضية أمر مسلم به وليست من النسبية التي تؤدي إلى انعدام الحقيقة المطلقة؛ بل هذا اختلاف في الأساليب والوسائل وليس في المعاني والغايات.

إن الاختلاف في الأساليب والأشكال لا يعني أنه لا يوجد حقيقة مطلقة، ولو قلنا باختلاف الممارسات الفردية فإنه لن توجد هناك أرضية مشتركة بين الناس، وميزان يحكمون فيه الصواب والخطأ، والحق والباطل، ولتنازعوا في حكم الكذب والسرقة والاغتصاب، ولتنازعوا في تقرير القضايا العقلية والعلمية كنتيجة: (١+١=٢) ولتنازعوا في الموجودات والمعدومات، فهل الموجود موجود، وهل المعدوم معدوم.

إن الحقائق المطلقة كثيرة جداً لا يستطيع العقل أن يردها وهي تشهد على زيف النسبية فمن ذلك أن الإنسان لا يوجد نفسه من العدم فهذه حقيقة مطلقة.

وهنا يتجه سؤال: إن كانت وجهات النظر الأخلاقية كلها على صواب،

فهل يكون لنا الحق في معاقبة شخص ما؟

وهل لنا الحق في إصدار حكم على أمر ما بأنه خاطئ؟

فلكي نقول: إن ذلك الشخص مخطئ فإنه يجب أولاً أن يكون لدينا مقياس نفرق به بين الصواب والخطأ كي نحكم على الأشخاص، فلو كان هذا المقياس بُني على النسبية فلن يكون لدينا مقياس مطلقاً.

ففي النسبية مقياس الصواب والخطأ مشتق من القيم الاجتماعية.

فإذا تغيرت القيم الاجتماعية تغير المقياس تبعاً لذلك؛ وبالتالي لا يمكن لأحد أن يحكم على شخص بالصواب والخطأ، إذ يمكن أن يكون هذا الخطأ صواباً في المستقبل!

٥- تناقضات النظرية النسبية الفلسفية:

وبما أن النسبية هي وضع فلسفي يرى أن كل وجهات النظر صحيحة وأنها نسبية للفرد، فإن هذه الوضعية الفلسفية تحمل في طياتها التناقضات التالية:

أولاً: كل الحقائق نسبية: إذا كانت الحقيقة نسبية؛ فإن عبارة " كل حقيقة نسبية" تعتبر عبارة مطلقة، والنسبية ترفض المطلق، فالعبارة متناقضة في ذاتها فبالتالي ليست كل الأشياء نسبية وعليه فعبارة " كل حقيقة نسبية" خاطئة. والقول أن " كل حقيقة نسبية" يرفضه الواقع، فهناك حقائق كثيرة مطلقة لا تحتمل النسبية بالاتفاق، فالشمس محرقة، والسماء فوقنا، والإنسان ناطق نامٍ وغير ذلك من الحقائق التي يعجز القلم عن إحصائها.

ثانياً: ما كان حقاً لديك ليس حقاً لدي: فأقول: إن الحق لدي أن النسبية باطلة، فإذا قلت لي: ليس هذا صحيحاً. فهذا يلغي المبدأ الذي قررته النسبية أي: ما كان حقاً عندي ليس حقاً عندك وبالتالي فالنسبية باطلة؟ وإذا قلت: نعم وأقررت بقولي، فالنسبية باطلة.

وإذا قلت حقاً: إن النسبية باطلة عندي فقط، فإن هذا يعني أنني أعتقد ببطلان النسبية، وإذا كان اعتقادي صحيحاً، فكيف يمكن أن تكون النسبية صحيحة.

ثالثاً: لا أحد يستطيع أن يعرف أي شيء من غير شك: إذا كان هذا صحيحاً، فإننا نعرف أننا لا نستطيع تعرفَ أي شيء من غير شك، فبالتالي معرفتنا هنا مطلقة وهذا دحض ذاتي.

رابعاً: النسبية تحمل التناقض الذاتي: النسبية غير قادرة على إنكار ما يتناقض مع الحقيقة ذاتها، فالكل لديه الحقيقة فلا ينبغي أن يكون هناك إقناع الآخرين بما تحمله من أفكار ومعتقدات فما تراه أنت حقيقة لا يحق لك أن تقنعهم، لأن يرون ما لديهم هو الحقيقة. فالنسبية لديها خاصية منطقية غريبة ترفضها الممارسة الواقعية، فالتطبيق الواقعي للنسبية أنها تملك الحقيقة وما عداها من أفكار ورؤى خاطئة فهي تمنع من يناقضها.

وخلاصة القول في نقد النسبية: أن الحقائق العلمية والأخلاقية والعرفية هي إما أمور قطعية مجمع عليها لا اختلاف فيها البتة فهي حقائق مطلقة من وافقها فهو على حق ومن خالفها فهو على الباطل، وإما أمور مختلف فيها أدلتها ظنية ولا مجال فيها

للقطع واليقين فهذه هي الأمور النسبية التي تحتمل توجيه النظر على وفق الأدلة الظنية والمعطيات الأغلبية والمجتهد فيها مأجور سواء وافق الحق المجرد أو خالفه فالحق فيها واحد وإنما كلفنا إصابته بغالب الظن والاجتهاد.

٥- ضوابط النسبية في الأخلاق:

أ- الأخلاق بين العمومية والنسبية: وتطبيق الأخلاق عملياً مسألة نسبية، قد يختلف تطبيقها من شخص إلى آخر ومن موقف إلى آخر. يقول بديع الزمان: (إن الفضائل والأخلاق وكذا الحسن والخير أغلبها أمور نسبية (...) فمثلا الشجاعة والكرم في الرجل تدفعانه إلى النخوة والتعاون، بينما تسوقان المرأة إلى النشوز والوقاحة وخرق حقوق الزوج. ومثلا إن عزة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي لو كانت في القوي لكانت تكبرا، وكذا التواضع الذي يشعر به القوي تجاه الضعيف لو كان في الضعيف لكان تذللا. ومثلا إن جدية ولي الأمر في مقامه وقار بينما لينه ذلة، كما أن جديته في بيته دليل على التكبر ولينه دليل على التواضع)[١].

ويقول أيضا: (عليك أن تصدُق في كل ما تتكلمه، ولكن ليس صوابا أن تقول كل صدق، فإذا ما أدى الصدق أحيانا إلى ضرر فينبغي السكوت، أما الكذب فلا يسمح به قطعا[٢]) .

ب- الأخلاق بين الفردية والكونية: يشترك جميع البشر في الفطرة، يقول تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ (الروم:٣٠). فالإنسان بفطرته يميز بين ما هو خير وما هو شر، من هنا يمكن اعتبار الأخلاقِ كونيةً.

والبناء الأخلاقي للإنسان يتطلب الحرية الفردية والتي هي حرية القرار. والمسلم يمارس حريته الفردية من خلال عبوديته الخالصة لله عز وجل، ويتحمل مسؤولية وجوده الإنساني، ويسعى إلى آفاق الكون من خلال ارتباطه الخلقي به؛ يقول النورسي: (إن لكل أحد علاقات بالمحبة والشفقة مع أقاربه ثم مع أفراد عشيرته ثم مع أفراد ملته ثم مع أفراد نوعه ثم مع أبناء جنسه ثم مع أجزاء الكائنات، بحيث يمكن أن يتألم بمصائبهم ويتلذذ بسعادتهم وإن لم يشعر)[٣].

---

(١) "صيقل الإسلام" ص٣٣٣.
(٢) "الخطبة الشامية" ص٥٠.
(٣) " المثنوي العربي النوري" ص٤٤٨.

وهي رؤية كونية ترفع الإنسان بمعراج الخُلق ليرتبط بعلاقات المحبة والشفقة مع جميع الكائنات في هذا الكون الفسيح. فتمتد أخلاقه بذلك لتسع الكون كلَّه.

ج- **الأخلاق بين الذاتية والإلزامية:** إن ممارسة الأخلاق قد تتبع أحد طريقين: إما طريق الإلزام الذي هو عبارة عن جملة من الأوامر والنواهي التي تُفرض من الخارج على إرادة الإنسان، وإما عن طريق الاعتبار الذي هو عبارة عن جملة من المعاني والقيم التي يستنبطها الإنسان تلقائيا مما يشهده من أفعال ويتلقاه من أقوال.

وقد وثّق القرآن الصلة بين التوق الذاتي للتخلق والاستجابة للخطاب الإلهي من خلال الإتيان بالأوامر والنواهي في سياق المحبة وكسب رضا الله عز وجل، وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥)، وقوله: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:٧٦)، وهذا يكشف أن المنظومة الأخلاقية الإسلامية ليست سيفاً مصلتاً على الرقاب وضعت لإلزام الخلق وإرهابهم، وإنما من أجل جعلها سماتٍ أساسيةً في شخصية المسلم ومقوماً لسلوكياته ومحفزاً لها.

وقد كان النورسي مستوعباً العلاقة القائمة بين حقيقة الإيمان والتخلق، فالمسلم لا يأتي الأخلاق ملزماً أو مكرهاً عليها لأنه لا خيار لديه، وإنما لأن نفسه متشبعةٌ بها، فتصدر عنه في كل سلوك يسلكه أو عمل يقوم به. يقول: (إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خَلق النظام والوحدة الاجتماعية وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين ويوصي بالبر ويأمر بالرحمة. وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كلِّ فرد تُجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس...)[1] فهذه ممارسات خلقية وليست مجرد قوانينَ ملزمة.

د- **الازدواجية الأخلاقية:**

يعتبر النورسي أن استناد الحضارة على الأساس المادي المصلحي انحرف بها عن القصد من الخلق، وصادم توجه الفطرة الإنسانية، وجنح بها نحو الظلم والاستغلال.

---

(١) "إشارات الإعجاز" ص٢٦٦.

ولذا يقدم طبيعة الفرق بين تربية القرآن وتربية الفلسفات المادية. ولعل هذا النص - على طوله- يقدم الفرق بين النظرية الغربية والنظرية الإسلامية: (حكمة الفلسفة ترى القوة نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف المنفعة في كل شيء، وتتخذ الصراع دستورا للحياة، وتلتزم بالعنصرية والقومية والسلبية رابطة للجماعات. أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس وإثارة الهوى. ومن المعلوم أن شأن القوة هو الاعتداء، وشأن المنفعة هو التزاحم إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم، وشأن الصراع هو الجدال والنزاع، وشأن العنصرية هو الاعتداء إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى. أما حكمة القرآن الكريم فهي تقبل الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة، وتجعل رضا الله سبحانه ونيلَ الفضائل هو الغايةَ بدلا من المنفعة، وتتخذ دستور التعاون أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع، وتلتزم برابطة الدين والروح والوطن لربط فئات الجماعات بدلا من العنصرية والقومية والسلبية، وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معالي الأمور وإشباع مشاعرها السامية لسَوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية. إن شأن الحق هو الاتفاق، وشأن الفضيلة هو التساند، وشأن دستور التعاون هو إغاثة كل الآخرين، وشأن الدين هو الأخوة والتكاتف، وشأن إلجام النفس وكبح جماحها هو إطلاق الروح وحثها نحو الكمال وسعادة الدارين)[1].

يكشف لنا هذا النص المعطيات التالية: القوة مقابل الحق، العدل مقابل الظلم، المنفعة مقابل رضا الله، الصراع مقابل التعاون. وهذه الازدواجية طبعت الوجدان الفلسفي المادي وحكمت عليه بالمنفعة الذاتية.

خاتمة: إن بديع الزمان سعيد النورسى قد نال من خزينة حقائق القرآن الكريم، حقائق عظيمة ومعارف جليلة، بحظوته بتجليات اسم الله "النور" واسم الله "الحكيم" وأظهر تلك الحقائق القرآنية إلى أنظار البشرية تحدثا بنعمة الله عليه .

وقد تخلق بالأخلاق المحمدية متجاوزا برازخ النفس والهوى، حتى برز في هذا العصر مثالاً فريدًا مجسما لمكارم الأخلاق، فأمضى حياته حاملا همة عالية واطمئناناً راسخاً وعفة تامة مع نكران ذات صادق تتحير منه العقول.

---

(١) "الكلمات" ص٤٥.

كل ذلك بما وهبه المولى الكريم من صفاء قلب وتوكل كامل وقناعة تامة، فنرى البساطة الكاملة في عيشه وملبسه بل في كل حاله وطوره. حتى لا تراه يحمل ذرة من محبة الدنيا وميل إليها.

المصادر والمراجع:

- "إشارات الإعجاز لمظان الإيجاز" لبديع الزمان ترجمة أ. إحسان قاسم الصالحي ط. سوزلر القاهرة.
- "صيقل الإسلام" لبديع الزمان ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط. سوزلر القاهرة.
- "الكلمات" لبديع الزمان ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط. سوزلر القاهرة.
- "ضوابط المعرفة" د. عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق ط: ثالثة ١٩٨٨م.
- "الكونية الأخلاقية عند النورسي" د.فريد الأنصاري من كتاب "المؤتمر العالمي السادس "العولمة والأخلاق".
- "اللمعات " لبديع الزمان ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط. سوزلر القاهرة.
- "الملاحق" ملحق أميرداغ لبديع الزمان ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط. سوزلر القاهرة.
- "الخطبة الشامية" لبديع الزمان ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط. سوزلر القاهرة.
- " المثنوي العربي النوري" لبديع الزمان ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط. سوزلر القاهرة.